الشّخصيات التاريخية الفاعلة في رواية سمرقند "لأمين معلوف

د. أوريدة عبود
الدّرجة العلمية:أستاذة محاضرة صنف"أ"
الشهادة:التأهيل الجامعي
جامعة مولود معمري/ تيزي وزو/الجزائر
abboudourida@yahoo.f

تاريخ الاستلام : ٢٠١٩/١٠/٨
تاريخ القبول : ٢٠١٩/١١/٢٤

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

الملخص:

تروم هذه الدراسة إبراز كيفية استثمار رواية "سمرقند" للتاريخ بوصفه أداة جمالية تقدم معرفة مثقلة بروح التساؤل،عن وجود الإنسان وعن تاريخه،عن هوية الأنا وحوارها مع الآخر، وصراع الإيديولوجيات،خاصة أن هذه الرواية تحدث متفاعلات نصية تاريخية، تقدم الوقائع المترامية عبر الأزمنة القديمة في شكل مكون نصي تخييلي قابل للقراءة والتأويل ،حيث يسافر أمين معلوف من الحاضر إلى الماضي من أجل أن يفهم الحاضر وأن يحمل بعض قضايا العصر ليعلق عليها ويجيب عن ما بقي غامضا مدة من الزمن. ذلك أن حضور التاريخ في صميم النص الروائي، وعده مرجعية جمالية تمنح النصوص الإبداعية تسييرا بنيويا جديدا، ينبع من تقدير المادة التاريخية في حد ذاتها والقدرة على الإحساس بها، وتثمين هذا الإحساس الذي يعد مزية من المزايا الإنسانية.كما يروم بحثنا كذلك بيان كيف تمظهرت الصّراعات الدّينية في بلاد فارس خلال القرن الحادي عشرا انطلاقا من مختلف الشخصيات البارزة التي أدت دورًا أساسيًا ومهمًا في توضيح المجال الدّيني والأوضاع التي كانت سائدة في هذه الحقبة.

الكلمات المفتاحية:التاريخ،الشخصية،الرواية،الصراع، الماضي.

Historical Figures in Amin Maalouf's *Samarkand*

Dr. Ourida Abboud
Lecturer Class A
Certificate: University Qualification
University of Mouloud Mammeri / Tizi Ouzou / Algeria
Email: abboudourida@yahoo.fr

Abstract:

This study aims to highlight how the novel of *Samarkand* made use of history as being an aesthetic tool that provides knowledge burdened with a sense of wonder about the existence and the history of man, identity of the ego, its dialogue with the other, and the conflict of ideologies; particularly, this novel presents a historical textual interaction, presenting the vast facts through ancient times in the form of an imaginative reading and interpretation text component. Amin Maalouf, in this novel, travels from the present to the past in order to understand the present and to carry some of the issues of the day to comment on, and to answer what has remained vague for a period of time. The presence of history in the of the text, and considering it as an aesthetic reference, gives the creative texts a new structural construction, stemming from the appreciation of the historical material in its own right and the capacity to sense it. The evaluation of this sense is considered as a feature of humanity. The present research also aims to demonstrate how religious conflicts have emerged in Persia during the 11th century from various eminent personalities who played an important role in clarifying the religious field and the conditions that prevailed in this period.

Keywords: conflict**,** history, novel, past, personality.

مقدمة:

إذا كان النص قادرا على استيعاب خارجيته فإن مقدرته تلك لا تتحدد إلا بالأساليب الفنية، التي من شأنها جعل النص فضاء لتلاحم مرجعيات أخرى، لا تعدو أن تكون بعد ذلك مكونا بنيويا للبنية الشمولية، وهذا ما يجعل التفكير في تحليل إمكانات حضور النصوص التاريخية أو الأحداث في حد ذاتها عاملا يفتح أفقا جديدا للقراءة والاستنتاج.

إشكالية الدّراسة:

يعرض هذا البحث إشكالا أساسيا حول الكتابة الروائية للتاريخ ، ويبحث في آلية التعامل مع الشخصية التاريخية في العمل الروائي من حيث نموها ،حيث إن الشخصية التاريخية شخصية مثبتة يصعب تحميلها بأكثر مما أسنده إليها التاريخ، إذ لا بد من أسباب تدفع بالروائيين إلى توظيف التاريخ و تسخيره في أعمالهم الروائية ضمن إعادة صياغته فنيا، أو لمقارنة ما كان في الماضي و ما يكون الآن.و ضمن هذا الإشكال الأساس تطرح دراستنا أسئلة مفادها:

–لماذا يلجأ الروائي لتوظيف التاريخ في منجزه السردي؟

– هل تضيف المرجعية التاريخية شحنات دلالية للنص الإبداعي؟

– ما المعطيات التاريخية التي تجسدها الشخصيات في رواية سمرقند؟

– كيف تجلت الشخصيات التاريخية في هذه الرواية ؟

منهجية الدراسة:

سنحاول قراءة وتأويل نص الرواية وفق المنظور النقدي السوسيولوجي، قصد الوقوف على أهم الشخصيات الفاعلة في في بلاد فارس خلال القرن الحادي عشر والكشف عن بعض مظاهر الصراع انطلاقا من الرؤية للواقع المجتمعي الفارسي آنذاك ، لهذا ستتبنى دراستنا إجراءات المنهج التاريخي والاجتماعي لأنّ الأحداث كانت متسلسلة زمنياً مع ضرورة التّحليل والاستقراء التي تتضمنها أحداث الرّواية، وتتخذ المقاربة الثقافية التأويلية للخوض في تفاصيلها ومرجعياتها.

١– حول رواية سمرقند:

تعد رواية سمرقند من الروايات الغنية بالتفاصيل والأحداث التاريخية.تتألف من أربعة كتب أساسية ومن ثمانية وأربعين فصلاً، تدور أحداثها في مدن ومجالات متنوعة .تقوم هذه الرّواية المسرودة من طرف "بنجامين لوساج" على قصتين أساسيتين في أزمنة مختلفة. يحكي أمين معلوف في كتاب "**شعراء وعشاق**" و–هو أوّل كُتب "سمرقند"– قصة "عمر الخيّام" النيسابوري

الذي يزور"سمرقند" ويلتقي قاضي البلاد "أبا طاهر" الذي سيعطيه كتابًا ذا صفحات بيض ؛ ليطلب منه أن يدوّن فيه كل ما يخطر في باله والتي ستكون فيما بعد ما سمّاه "الرباعيات"، ثم يأخذه للقاء الملك الذي سيعجب بذكائه ودهائه. هنا يسقط "عمر" بشباك الحّب مع شاعرة في بلاط القصر، ثم يعود السّارد لزمن بعيد ليتحدث عن زمن الحروب.

نشأت علاقة بين الوزير "نظام الملك" وبين "عمر"، قبل أن يدخل طرف ثالث شديد الحيلة والدّهاء هو "حسن الصباح" ليلعب دور المستشار للوزير الذي سينفى بعد أن كان يَخدع الوزير، ليعود بعد سبع سنوات للانتقام.

وبعدها يسرد معلوف في "**فردوس الحشاشين**" و–هو الكتاب الثاني من الرّواية – حياة "عمر الخيّام" الذي كان قد تزّوج من"جيهان" ليعيش حياة بعيدة عن كل التّوترات والضغوطات قبل أن يظهر"حسن الصبّاح" وطائفته المشهورة بطائفة "الحشاشين" ويعود بها للانتقام بعد أن غيَّر نظامه إلى الإسماعيلية المنبوذين من طرف السّلطة آنذاك. يَمضي بقوته هذه نحو التّدمير والتخريب والقتل حتى عدت أوّل آلة اغتيالية عبر التّاريخ؛ فاِغتال الوزير "نظام الملك"، السلطان "ملك الشاه" و"زوجة عمر الخيّام" التي تركته من أجل الغرض الملكي، يهرب بذلك"الخيّام" من هذه الظروف ليستقر في مسقط رأسه ليموت هناك. بعده يموت"الصبّاح" ليخلفه أحفاده و ينتهي الأمر بسقوط قاعدة "الحشاشين".

أما في كتاب "شاعر تائه"و "نهاية الأعوام الألف"وهو الكتاب الثّالث والرّابع من الرّواية، يقدّم لنا فيها حكاية السّارد وشغف والديه بعمر الخيّام، لينطلق في رحلة للتّعرف على بلاد فارس بمساعدة صديق جدّه "صلاح الدّين"، فيسعى للعثور على "مخطوط سمرقند، لكنه يتهم بالقتل ويصبح مجرمًا، يلتقي بـــ "شرين" حفيدة الشاه لتنقذه من الاتهامات الموجهة إليه، ويعيش معها قصة حبّ فيعود إلى بلده دون تحقيق مسعاه، ثم يعود بعدها ليجد نفسه مشاركًا في حملة اليقظة بالمشرق والمشاركة بالمقاومات والمعارك، لكنه لا ينسى هدفه الأساسي وهو "المخطوط".، يتشارك هو و"شرين" حبَّ المخطوطة، ولكن يقرر تركها ليكمل الرّحلة التي بدأها لبلاد "فارس" وبعد أن زار "سمرقند" يتوَّضح أمامه الأمر ليعود أدراجه للعيش مع زوجته"شرين" رغم الصّراعات القائمة بين أهل الحداثة وأهل السياسة.

يقرر السّفر إلى "نيوروك" مع وزوجته حاملين معهم مخطوطة سمرقند على متن باخرة التيتانيك التي ستغرق بعدها سنة ١٩١٢، لتغرق معها أحلام كثيرة ليستقر المخطوط في أعماق المحيط داخل صندوق محكم الإغلاق....يقول معلوف **رباعيات الخيام على الـــ"تيتانيك!"زهرة**

الشرق تحملها زهرة الغرب! ليتك يا خيّام ترى اللحظة التي كتب لنا أن نحياها!...هكذا كانت آخر كلمات الرّواية لتبيّن لحظة بارزةً لمخطوطٍ طالما كان محركًا للأحداث.

ترتكز هذه الرواية إذن على مدينة "سمرقند الفارسية"، المدينة التي شهدت صراعات وحروب شتى، وهو المكان الأساس لهذه الرّواية والمنبع الأول لها. ولكن هذا لم يمنعها من تداخل أماكن أخرى تتقاطع معها "كأصفهان "نيسابور" "ألموت"" وغيرها. تشتمل على بلاد "فارس" المكان الأساس لقصص الرّواية بين زمنين مختلفين: الأول هو الذي تدور فيه أحداث النصف الأول منها وهو زمن "الخيّام" **من بداية القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر.** و الزمن الثاني هو زمن "بنجامين" في القرن التاسع عشر،علما أن بلاد فارس عاشت منذ القديم وحتى الآن أطوارًا تاريخية متأرجحة ومختلفة بين القوّة والضعف. فبعد أن كانت ولاية اِستطاع فيها السّلاجقة العظام أن يؤسسوا منها عصرًا جديدًا عُرف بالسلطة السّلجوقية في المشرق من ٨ ١٠٣ إلى١١٥٣. فقد تمكن من توحيد البلاد بالقوّة والسياسة، لكن سرعان ما فقد خلفاؤه السّيطرة على الصّراعات التي قامت بين مختلف الطوائف آنذاك بين المسلمين ، وغيرها من الطوائف المختلفة من إسماعيليين صوفيين سونيّين...وغيرهم. مما أدى إلى استغلال الوضع من طرف الأجانب وإعلان الحروب عليها، كالحروب الصليبية، وبذلك اِنقسمت وحدة المشرق إلى دويلات صغيرة سميّت بملوكها الذين حكموها وكان كل واحد منهم يحاول السّيطرة على الآخر، فأخذ القوّي يبطش بالضّعيف. الأمر الذي أدى إلى ظهور صّراعات ذات طابع ديني .

يعمد الكاتب في مواضع كثيرة إلى استعمال تنوع في ديمومة الرّواية، حيث يلجأ في أحايين كثيرة إلى الحوار لإبطاء السرد والوصف و استظهار الرّباعيات، ويحذف عدّة أحداث لتسريع السرد كالفرق الذي يوجد بين الزمن الأول والزمن الثاني الذي لا نخاله موجودًا أصلاً. فكأنّهما متلاصقان إلاّ أنّ الزمن بينهما ثمانمئة عامٍ تقريبًا.

الرواية قادرة على خلق عوالم عدة، لكنها تركت هذه الحرية التامة وتقيدت بمعطيات التاريخ .فلمـــاذا تعـــود مثلا إلـــى نصوص "الخيام" وتتجشم عناء البحث عن ارتباطات وتقاطعات معقدة تعطيهـــا هذه التبعية للتاريخ وإن حاولت التنصل منها وتجعلها تقرأ دوما بمرجعية ما ؟ هل تسعى هذه الرواية إلى إيجاد عالمها الخاص، فعادت تبحـــث في تاريخ سمرقند وشخصياته عن شيء معين، أم أن لهذه العملية التي قام بها النص غاية ما خـــارج لعبـــة العلاقات التي ترسمها مع الماضي؟

٢- الشّخصيات الفاعلة في القرن الحادي عشر في بلاد فارس:

تعد الشخصية التاريخية من أهم الركائز التي يحاول الروائي المعاصر إدراجها في منجزه السردي حتى يتمكن من إحياء هذا التاريخ في ذاكرة الشعوب.فالشخصية التاريخية الفاعلة في الحدث من المعضلات التي ترهق الروائي و تأسره ضمن قانونه التاريخي الخاص. وتوظيف هذه الشخصيات في السرد الروائي يحتاج إلى دراية بالأحداث التي اشتركت في هذه الشخصية وتلك التي لم يشترك فيها. (الشمالي،٢٠٠٦،ص٢٢٦)(EL CHAMALI,2006,P 226)، لهذا فإن ما يجعل الروائيين ينصبون على كتابة التاريخ ليس لإعادة التاريخ و لكن الروائي بخياله الخلاق قادر على إبراز وقائع و أحداث هذا التاريخ كون الرواية التاريخية هو تمثيل واقع اجتماعي معين في وقت معين. وعندما نعالج السياق التاريخي مرجعية نصية، نفهم أن استلهام الماضي بقربه أم ببعده نابع من حاجة الكاتب إلى قناع يختفي وراءه، ليجعل من رؤيته تكتسي طابع الموضوعية المستمد من أحداث التاريخ، لذلك يتمكن من إنتاج مادة تعبيرية حرة. وتؤدي العودة إلى التاريخ دور المرآة، حين يسقط المبدع معطيات الماضي ليقرأ وقائع الحاضر، فيفهم أبعادها الإنسانية ويحدد المبدع قراءاته الموضوعية للماضي في ضوء الحاضر الذي يخلع مشاهد همومه في ضوء الماضي. ولما كانت الرواية تصور كلية الأشياء، فإن عليها أن تتغلغل في التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية (الشمالي٢٠٠٦،ص٤ ١٣) (EL CHAMALI,2006,P 134) .ما يعني أنه من أجل نقل خصوصية اللحظة الحضارية والاجتماعية والنفسية للزمن التاريخي المستهدف في الرواية تصبح الشخصيات والأحداث التاريخية مجرد وسائل عمل وتقنيات مساعدة لتحقيق معايشة الخصوصيات التاريخية المستهدفة بكل تفاصيلها، لأن الكاتب لا يستهدف إعادة التاريخ بقدر ما يرمي إلى معايشة التاريخ. فيرى لوكاش أن الرواية التاريخية هي " رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق ،وهي أيضاً رواية تقرب الماضي إلينا وتسمح لنا بأن نعيش وجوده الفعلي.(لوكاش،١٩٧٨،ص،٨٩)(LOKACHE,1978,P89)

لقد قدمت روايات أمين معلوف في علاقاتها التفاعلية مع التاريخ قراءة نقدية متميزة بحيث أن أغلب روايات هذا الروائي تجاوزت الكتابات المألوف سلطت الضوء

على الماضي التاريخي المهمش.نجده يقترب من الواقع التاريخي و يبتعد في الوقت نفسه عن التقريرية حفاظا منه على جماليات كتاباته الروائية. هذه الخاصية هي ما يميز الروائي في كتاباته،إذ إن أغلب رواياته ترتبط و تتداخل مع التاريخ.هذا التداخل يكون من خلال إدراج أي نص في سياق مجتمعي تاريخي.فعناصر ما قبل النص الأدبية الاجتماعية والإيديولوجية تحدد تراث المؤلف.فالنص الروائي يتأسس على موضوعات تدخل السياقات الاجتماعية و الإيديولوجية التي تحدد ثقافة و انتماءات المؤلف.

إن حضور التاريخ في صميم النص الروائي واعتباره مرجعية جمالية تمنح النصوص الإبداعية تسييرا بنيويا جديدا، ينبع من تقدير المادة التاريخية في حد ذاتها والقدرة على الإحساس بها، وتثمين هذا الإحساس الذي يعد مزية من المزايا الإنسانية.

تنقسم شخصيات هذه الرّاوية إلى زمنين مختلفين أولهما:القرن الحادي عشر في بلاد فارس والثاني القرن التاسع عشر. ولكل حقبة أربع شخصيات مهمة تختلف من حيث الأدوار والمكان والزمان والدّين.لكن ما ينبغي الإشارة إليه أن دراستنا هذه ستقتصر فقط على شخصيات القرن الحادي عشر.

أ- عمر الخيّام/صورة للفئة المثقفة:

تمثّل هذه الشخصية الفئة المثقفة في هذه الحقبة وهي شخصية محورية في الرّواية بإختلاف أزمنتها. بدءًا من ولادتها في "نيسابور"وإنتقالها إلى "سمرقند"، "أصفهان"... . واجهت هذه الشّخصية اتهامات بالزندقة لكتابتها "الرّباعيات"ودبرت لها عدّة مكائد وحيّل خاصة خلال عيشها في القصور بين السّلاطين.

إن الاسم الحقيقي الكامل للخيام هو"غيّاث الدّين أبو الفتوح إبراهيم الخيّام". ولد عام(٨٤ ٠ ١) في نيسابور وتوفي عام(٣١ ١١)عن عمر يناهز (٤٨)سنة. ذو نسب وعائلة مسلمة مثقفة، سميّ الخيام نسبةً لمهنة والِدِه الذي كان صانعًا وبائعًا للخِيّام. عاش طفولته في مسقط رأسه– نيسابور– وهي الآن إحدى مدن إيران. فقد كان عالمًا، فيلسوفا، شاعرًا... . قدّم الكثير للعلوم التي عَمِل فيها وتميز شعره بأبعادٍ فلسفية أثارت جدلاً واسعا بين من أرّخ له أو قرأ عنه لكنها بقيت علامةً فارقةً لتلك الفترة. اشتهر "الخيّام" بما سمّاه "الرباعيّات"، فقد ذاع صيته وعُرف من خلالها في كل زاوية وبقعة من الأرض.

عاش "الخيّام"في القسم الأول من الرّواية سبع سنوات من السعادة والحبّ والسكينة، حيث كان "يمارس شعائره الدينية بكل أريحية مع حبيبته التي أصبحت فيما بعد زوجته. كان يعيش في بلاط السّلاطين السّلاجقة آنذاك و كثيرا ما كان يمُدهم باستفسارات وآراء كانت تخدم الدّولة بالمنفعة والسّلم والسّلام.وضع "الخيّام" تقويمًا سنويًا أكثر دقة من ذي قبل. تحولت حياته فيما بعد إلى مجموعة من الخلافات والصّراعات كما يؤكد ذلك أمين معلوف : «لقد مرّت سبع سنوات، سبع سنوات سعيدة للخيّام كما للإمبراطورية، وكانت سنوات السلام الأخيرة» (معلوف،١٩٩٧،ص١١٣)(MAALOUF,1997,P 113).

فضّل الخيام العيش بعيدا عن الخلاف والصّراع الذي كان قد نشب بين صديقيه "نظام الملك"، و"حسن الصّباح" فنأى بنفسه عنهما فِاختار التفرغ لنفسه وحياته. لأن سبب سفره إلى "سمرقند" كان لإنجاز ما كان يحلم به. تعرّف هناك على القاضي "أبي الطاهر" ليُعينه في عدّة مناصب مهمة في الدّولة، فحقق "الخيّام" نجاحات كثيرة ومارس أعمالاً شتى يذكرها التّاريخ.رغم ما مرّ به من صعوبات كاتهامه بالزندقة والإلحاد. أصبحت حياته أكثر هدوءًا بعد وفاة "نظام الملك" و"ملكشاه"، لكنه سرعان ما يعود الصّراع بعد ظهور صديقه "حسن الصّباح" من جديد بعدما نفي من البلاد. فيصبح الوضع في"سمرقند" أكثر خرابًا ودمارًا وصراعًا بين مختلف الشخصيات بظهوره هذا ليتَّهم "الخيّام" بذلك لكونه كان سندًا له حيث نظّم فرقةً تعمم الخراب وتنظم الجرائم وتقتل وتدمّر المعمورة وسماها، "فرقة الحشاشين".

اتهم الخيام بمساعدة صديقه لتنظيم هذه الفرقة. وهذا الحوار يوّضح ذلك:

"الوزير يتحدث مع القاضي أبي طاهر....

«أتعرّف من المسؤول الحقيقي عن مصائب سمرقند ومصائبنا جميعًا؟ إنه هذا الرجل الذي رافقك إلى هنا!

– عمر الخيام؟ – ومن غيره؟

إنّ الخواجة عمر هو الذي شفع لحسن الصبّاح في اليوم الذي كان في مقدوري أن أحصل فيه على موته، لقد منعنا من قتله، فهل في وسعه الآن منعه من قتلنا؟» (معلوف، ١٩٩٧ص١٢٨)(MAALOUF,1997,P 128)

يدلّ هذا على أنّ الخيّام قد أيّد فكرة طائفة صديقه "حسن الصباح" عندما عارض فكرة إعدامه لما قرر المَلِك ذلك لمّا عيّن في احدى مناصب الدّولة فذهب واستولى على أموالها. وتظهر معارضةُ "الخيّام" في هذا المقطع:

"عمر الخيام يتحدث مع الملك:

«فليعف مولانا، قد يكون "حسن الصبّاح" ارتكب أخطاء، وقد يكون أذنب من جراء تفانيه واندفاعه وينبغي أن يطرد من أجل هذه الجنحة غير أنه لم يرتكب أي ذنب خطير بحقك.

– لتسمل عيناه إذن! هاتوا الغاليّة وحمّوا الحّديد.

– لا تنزل يا مولاي مثل هذا العقاب بشاب لا يمكن أن يسلو إقالته إلاّ بالقراءة والكتابة.

حين ذلك قرر"ملكشاه" بالعزوف عن قرراه وحُكم على "حسن" بالطرد، والنفي إلى بلاد بعيدة مدى الحياة»(معلوف،١٩٩٧ص١٠٩)(MAALOUF,1997,P 109)

بعد سبع سنوات من الغياب يعود "الصبّاح" حاملاً معه عتادًا قويًا وبغضًا كبيرًا نوى من خلاله أن ينتقم من كل شخص أذاه حيث التقى بالخيام لأول مرّة حيث جرت بينهما هذه المحادثة:

"الخيّام يتكلّم:

– ماذا جئت تفعل في أصفهان. جميع رجال نظام الملك يبحثون عنك؟

– جئت أدعوك إلى اعتناق عقيدتي.

أراد عمر التأكد من صحة ما يقوله فضحك عندئذ الصبّاح وقال إنّه يمزح .فقال الخيام:

– هل عدت لتنتقم؟

فرّد عليه الصباح وكأن كرامته أهينت:

– لستُ أسعى للانتقام لشخصيّ الحقير بل أرجو تدمير الجبروت التركي (معلوف،١٩٩٧،ص ١١٨-١١٩)(MAALOUF,1997,P 118-119).

لم يعد"حسن الصبّاح" كما كان من قبل مع "الخيّام" خاصة مع ما قام به من جرائم قتل. وبعد وفاة الوزير من طرف الطائفة ووفاة زوجته من طرف أعوان الوزير.أحس "الخيام" أنه في خطر فقرر السفر والاستقرار في "نيسابور"، أين قضى أوقاته الأخيرة.

عندما نتحدث عن شعبية الخيام في الغرب لابد أن نتحدث عن رباعياته الشهيرة. رباعيات تحتفي بالنبيذ وحب الحياة والسخرية من عنف رجال السلطة مع النساء، وهذا ما جلب له متاعبَ معهم في تلك الحقبة، حيث عكست هذه الرباعيات حياته الميتافيزيقية ورؤيته إلى الكون ونهاية العالم، بحيث كانت عقيدته غامضة نوعًا ما. أثآرت هذه الرباعياته جدلاً وغموضًا بين الدارسين فهناك من يرى أنه ملحد زنديق يرفض الإعتراف بوجود الله. وهناك من ينفي ذلك، "على سنة ذكر الأموات بالخير. فما الفائدة من إخفاء حقيقة التاريخ؟ فللخيّام رباعيات عديدة تدّل على أنه ملحد. كان يخفي إلحاده هذا بالتوحد والخلو بعيدًا عن غيره. ولم يكن وحده من يملك هذه النظرة آنذاك. كان عصره حافلاً بالاضطرابات العقائدية وتمردها وتلاطمها، حيث عرف انتشار فلاسفة يونانيين وزندقة الفرق الباطنية وفساد كثير من رجال الدّين. فبعض رباعيات الخيّام تمتُ بصلة إلى التّمعن في الدّنيا وإظهار الحيرة من بعض شؤون الحياة، لكن بعضها الآخر لا تخفى على من يقرأها أنَّها إلحاد وجحود

«حار قوم بين شكٍ ويقين يا صديق. **وأطال الفكر في المذهب والدّين فريق.

أنا أخشى أن ينادى ذات يوم: أن أفيقوا ** أيّها الجهال، لا هذا ولا ذاك الطريق (معلوف ،١٩٩٧،ص ٦٢)(MAALOUF,1997,P 62) .

هناك رباعيات أخرى على غرارها توّضح بعضا من أفكاره اتجاه الله والدّين بطريقة رياضية ما يسمى"بالإلحاد الرياضي، فلا يخفى علينا أنّ "الخيّام" كان عالمًا رياضيًا فاعتمد على إعطاء فرضية ثم يأتي بالبرهان على سبيل المنهج الرياضي. فيعطي معادلةً رياضية كقوله:

"أَنتَ يا رَبَّ كَريمٌ، أنتَ ذو لطفٍ ومنٍ.

فلماذا تطرد العاصي على جنّة عدنٍ؟

ليسَ جودُك أن تُعْطيَني عنْ حسنياتي.

إنما جودك أن تؤنيني عن سيأتي. (معلوف،١٩٩٧ص٦٤) (MAALOUF,1997,P 64) .

جسد الخيام في هذه الرّباعية معادلة رياضية وبيّن الجانب الموجب من السّالب لنظرته حول الله تعالى، ثم أعطى النتيجة في البيتين الأخيرين.لقد تجلى في القسم الأول من الرّواية "شعراء وعشاق" أنه شخص جريء في مخاطبة ربّه. يقول:

«إلهِي قُلْ لِي مَنْ خَلا مِنْ خَطِيئَةٍ *** وَكَيْفَ تُرَى عَاشَ الْبَرِيءُ مِنَ الذّنْبِ

إِذَا كُنْتَ تُجْزِي الذّنْبَ مِنّي بِمِثْلِهِ ***فَمَا الْفَرْقُ مَا بيني وبينك يَا رَبِّي ؟»(معلوف،١٩٩٧،ص ١١)(MAALOUF,1997,P 11)

قدّم لنا الكاتب هذه الشّخصية بطريقة مختلفة تماماً عن باقي الشّخصيات الأخرى. فالخيّام يجد دائمًا صعوبة في التأقلم مع المتغيرات، فيخلو بنفسه مع كتبه وفلسفته وتأملاته بعيداً عن هذه الصّراعات. هذه الشّخصية بالنسبة **للكاتب** أنموذج للشّخص المستقل الحرّ المتّحدث بِاسم مختلف الحضارات والمناطق التي مرّ بها عبر مختلف الحقب الزّمنية المختلفة. وضّح لنا هذا الأنموذج التّيار الفكري للمؤلف الذي يدعو إلى التّعددية الثّقافية والتسّامح الدّيني.

تمثل شخصية الخيام القوّة الثالثة التي تتوسط القوّتين الأولى والثانية فليس لديه لا سيّاسة "نظام الملك" ولا التعصّب الدّيني الذي لدى "حسن الصبّاح"؛ فهي شخصية حيادية بين الصّراعات الداخلية التي تمرّ بها الإمبراطورية السّلجوقية آنذاك .يقول: «... أنا عالم والجميع يكرّموني ويبجلونني فلماذا أدع مصيري يتقرّر بين الكلاب والنّمور...» (معلوف،١٩٩٧،ص١٦٨)(MAALOUF,1997,P 168) . تشير كلمتا "الكلاب" و "النّمور" إلى شخصيتين أثّرت على حياته ؛"نظام الملك"، "حسن الصبّاح"، فرغم علاقاته التي أقامها معهما لكنه قرّر الرحيل بعيدًا عنهما وعن الصّراعات التي حلّت بينهما فلكل منهما اتجاه مختلف عن الآخر ف"نظام الملك"المدافع عن السّنة و"حسن الصبّاح" ذو المذهب الشيعي الإسماعيلي فيقرّر عدم البقاء معهما والدخول في نزاعاتهما والتفرغ لحياته والعيش بفلسفته الخاصة اتجاه الحياة.

على الرغم من حديثنا عن هذا الشخص بأنه ماجن و زنديق إلاّ أننا لا نغفل عن ذكر الجانب الموجب في حياته، فهو يؤمن بوجود الله وحده لا شريك له. نستدل على ذلك بهذا الحوار الذي وقع بين "الخيّام" والقاضي "أبي طاهر" عندما اِتهموه أهل"سمرقند" بالزندقة.

أبو طاهر يسأله:

«– أتكون الزنديق الذي يصفه بعضهم؟

– إني أحذرُ تفاني الأتقياء. لكني لم أقل يومًا إنّ الواحد الصمد اثنان.

– هل خطر ذلك على بالك يومًا؟

– أبدًا، والله شهيد عليّ... لست من أولئك الذين لا يعدو إيمانهم أن يكون خوفا من يوم الحساب، ... طريقتي في الصلاة؟ أتأمل وردة، أَعُدّ النجوم أتدلّه بجمال الخليقة، بكمال نظامها وترتيبها بالإنسان... بعقلِ المتعطش إلى المعرفة...» (معلوف،١٩٩٧،ص ٢٤٠) (MAALOUF,1997,P 240))

يكمن إلحاد "عمر الخيّام" في فلسفته وتأملاته المتعددة للحياة والكون ورؤيته الميتافيزيقية لأنّ له تفكيرا خاصا وطبيعة فلسفية خاصة. فقد كان مفكرًا وفيلسوفًا صاحب طريقة ومذهب مختلفين.وربما نستطيع القول إنّ نظرة الأكثرية من الرّواة والنّقاد قد أغفلت هذا الجانب من شّخصية"الخيّام" وذلك في فهم أفكاره وعقيدته الفلسفية والدّينية، فهو كاتب نجده قد برع في دمج هذه العقيدة والفلسفة الخاصة به وتوضيح أرائه وأفكاره ببلاغة وفصاحة.تعمق "الخيام" في دراساته حتى وصل إلى دراسة السرمدي*، ووصل إلى وجود قدرة قاهرة فوق كل البشر وهي القدرة الكليّة للكون وهو "الله".

«إنّ احتساء الخمرة والفرح من عادتي *** وديني ترك الكفر والدين!
قُلتُ لعروس الدهر ما مهرك؟ *** قالت الفرح هو مهري!» (الخيام،دت، ص٢٢)
(EL Khayyâm, ND,P22)

تشير هذه الأسطر إلى مذهب الخيّام ورؤيته للحياة. فمادام الموت حليف كل إنسان لماذا لا يقضى حياته فرحًا سعيدًا يفعل ما يريد ، يحب ويجد ذاته في ملذاته. قيل أنه قد تاب قبل أن توفيه المنيّة وطلب العفو من ربّه قائلا له: «أنت تعلم يا رب إني سعيت لإدراكك جهد استطاعتي فسامحني إن كانت معرفتي بك طريقي الوحيد إليك!» (معلوف،١٩٩٧)،ص ١٨٥)(MAALOUF,1997,P 185)) .وضع الخيام نفسه أمام ربّه يطلب منه العفو على أنه قد سعى إلى إدراكه ومعرفته عن طريق أفكاره وتأملاته وفلسفته وعقيدته المشبوهة بالإلحاد. فقد كان هذا سبيله لإدراك الله.

كان آخر ما كتبه الخيّام هو هذه الرباعية.

«يا عالم الأسرار علم اليقين. *** يا كاشف الضّر عن البائسينْ.
يا قابل الأعـذار عدنا *** **الى ظلك فاقـبل توبـة التائبيـنْ**
(رامي،٢٠٠٠، ص٧٥)(RAMI,2000, ND,P 75)

"الخيّام "لم يمت وهو على خطيئة فقد تاب إلى ربّه وطلب العفو منه. لعلّ الله يقبل عفوه على جرأته التي كان قد تحلى بها في الأمور التي كان يخوض فيها؛ من أمور لاهوتية وطيشه وتعطيشه للمعرفة. اِنتهت بذلك حياة "الخيّام" عن عمر يناهز أربع وثمانين سنة" (٤ ٨ عاما). فكان بذلك رجلاً أحبّ وبحث وحلم بعالم مثالي، صادق الفقهاء والأمراء والوزراء والعصّاة، رفض كل سلطة عليه.

هكذا تحاول هذه الرواية أن تؤسس خطابا تاريخيا مرتكزا على فكرة الصراع الذي نلمسه في الطابع الإشكالي المبنـــي أساسا على تباين وتعارض مواقف وسلوك الشخصيات فكل

شخصية ترسم لنفسها حكاية وتبني لذتها موقفـــا يبـــدأ بصورة طبيعية وينتهي إلى بـــؤرة التحول والتأزم.

فشخصية "الخيام" ليست إلا مرجعية تاريخية قابعة في الوعي الجماعي ،فما يهم ليس معرفة طبائع هذه الشخصية ولكن ضرورة تدبـــر الاستعدادات المعرفية والثقافية التي تحرك هذه الشخصية ،لأن الكاتب لم يبدع "الخيام" خارج الثقافة الجماعية بل أبدعه من رحم التاريخ والواقع الفارسي، ومن الأطر الجماعية التي رأى فيها الكاتب إشكالا يعيق قراءة التاريخ. ولهذا فإن رواية سمرقند تتجاوز كونها رواية ذات منحى إبديولوجي ،لتصبح متنا سرديا باحثا عن موقع تاريخي وسط إشكالات ومفارقات،ارتبطت أساسا برهانات واقعية وإشكالات فكرية وتأويلية.

ب- نظام الملك:/صورة لهيبة الدولة:

نظام الملك يعني نظام المملكة و اِسمه الحقيقي هو "أبو علي الحسن بن علي بن اِسحاق الطوسي"، ،ولد في الرّابع أفريل ١٠١٨ في "نوقان"، بالقرب من"طوس" (إيران) وتوفي مقتولا عام ١٠٩٢ من طرف "طائفة الحشاشين".ينحدر من عائلة مهمة من مُلاّك الأراضي الإيرانيين الذين خدموا لفترة طويلة إمبراطورية "غرانفيد". خدم أيضا بجوار السّلاطين السّلاجقة مثل"ألب أرسلان" و"ملك شاه الأول" وهو أكبر السيّاسيين الذين سيّروا الإمبراطورية السلجوقية بنظام سيّاسي، اجتماعي. حيث سيّر الإدارة المدنية السلجوقية بحِكمة كبيرة من شأنها أن تكون بمثابة أنموذج للشرق الإسلامي بأكمله . وأجمل ما رثّي به:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة. *** نفيسة صاغها الرحمن من شرفٍ.

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها***فردّها غيرةٌ منه إلى الصدف (رضا محبوبة،دت،ص١٣))

RIDA MAHBOUBA ,ND,P13

يوصف "نظام الملك" بالقوة ويعدّ أقوى رجل في الإمبراطورية السّلجوقية يقول الكاتب: «وعلى بعد خطوات ... اِنتصب الوزير الأكبر رجل الإمبراطورية القوّي ذو الأعوام الخمسة والخمسين الذي يناديه ملكشاه "أبي" دلالة على إجلاله الشديد له، ويدعوه الآخرون "نظام الملك". لقبٌ لم يسبق أن استحقه رجل أكثر مما استحقه هو...» (معلوف،١٩٩٧،ص ٧٠)(MAALOUF,1997,p70). كان طموحه يَكْبُر يوما بعد يوم ، فقد أثبت لنفسه قبل غيره أنه شخص أكثر احترامًا في الامبراطورية. وهكذا بفضل القوّة والثّقة التي تحصّل عليها من "ملك شاه".اِستطاع أن يمنع كل تدخل أجنبي خاصة في أمور الدّولة، فهو كان يحلم دائما بدولة يعمها السّلام والطمأنينة فأراد تجسيد أحلامه على أرض الواقع .تقول الرواية موضحا ذلك:

«أتأمل في جيشي المبثوث، وفي مسجد وقت الصّلاة، وفي سوق من الأسواق حتى في ديواني،و أتساءل :لو طالبت هؤلاء الرجال بعمل حكيم ،بمعرفة من المعارف...تلك هي أحلامي وهواجسي»(معلوف،١٩٩٧،ص٩٠-٩١) (MAALOUF,1997,P 90-91)

عاش نظام الملك منذ طفولته يطلب العلم ظلّ مدة عشر سنوات في"بطوس" يطلب المعرفة، وبعدها قرر الذهاب إلى مدينة "نيسابور" لاستكمال معرفته فأقدم على الدّراسات العليا بشغف ورغبة كبيرين. ليلتقى هناك بصديقيه "عمر الخيّام" و"حسن الصّباح"، ثم انتقل إلى "بخارى" ليجد لنفسه عملاً يساعد به نفسه وأباه الفقير، ومواصلة علمه إلى مدينة "مرو" أين عُيّن كاتبًا للسلطان "الباسلان" وسرعان ما انتقل إلى "بلح" لتنتهي بذلك المرحلة الأولى من سيرته. فقد عيّن كاتبا لحاكم "بلح" آنذاك، ثم انتقل بذلك إلى حياة القصور والوزارة، وإلى استدبار أمور الدولة.ألّم نظام الملك بالتاريخ الإسلامي،مما ساعده في إنجاز مهمته في الوزارة والسّياسة.(ينظر،رضا محبوبة، دت،ص٢٧٩)(RIDA MAHBOUBA,ND ,P 279)

اشتهر بتشدده ضدّ الفرّق الشيعيّة خاصة الإسماعيلية والباطنية الذين كانوا دائمًا يسعون إلى السّلطة. كان أحد الرّجال العادلين في الدّولة السّلجوفية حتى إنه كان يكره أن يُذكر الإسلام بغير خير. استطاع أن ينشر الإسلام في ربوع المشرق واِستولى على مناطق عدّة التي أصبحت مصدر نفوذ وقوّة الدولة. تراجعت بعد ذلك القوّة السّلجوقية بعدما كانت في أوجها، بسبب الصّراع والخلاف من أجل السّلطة.فظلت هذه القوّة في خلاف وصرّاع داخلي، وخارجي.

أنشأ مدارس مختلفة في كل بقاع السلجوقية وسمّاها باِسم المدارس النظامية التي كانت كردّة فعل على ما كان الطرف الأخر بصدد القيّام به لنشر دعوته. كان "نظام الملك" رجل دولة من الطراز الأول: «ليس سيّاسيًا محترفا يجري مع الرّيح، أينما هبت ويسير مع النفع الشخصي، حيثما ذهب... فإننا من خلال سيرته وعباراته نسمع صوت رجل ذي عقيدة راسخةٍ، سار إلى الموت وهو يعلم أن عداءه للإسماعيلية سيؤدي بحياته ولكن النصر مع ذلك سيكون لآرائه ومعتقداته بعد وفاته» (رضا محبوبة،دت،ص٢٨٦) (RIDA MAHBOUBA,ND,P 286))

لطالما كان نظام الملك مدافعًا قويًا على سنته وشريعته ومذهبه. حيث حارب كل طائفة تدعو إلى غير دينه. كان له الفضل في إعادة الهيبة للدولة والخلافة بعدما عرفته من اضطرابات واِنشقاقات دينية .

جـــ- حسن الصّباح/صورة للتدمير و الانتقام:

ينحدر حسن الصباح من عائلة تجارية بورجوازية تابعة للإسماعيلية. كان هذا الرّجل ذكيًا عالمًا بالهندسة وعلم الفلك ولُقب "بشيخ الجبل" ومؤسس قلعة"ألموت".حضر هذا الرجل دار

الحكمة في "القاهرة" لتعلّم واكتساب المعرفة الدينية عن الشيعة الإسماعيلية. كان ينتمي إلى عائلة شيعية إماميه. وفي صغره انتقل أبواه للعيش في مدينة "الرّي" بالقرب من "طهران" هناك، أين تلقى تعليمه الدّيني. حيث كانت "طهران" آنذاك مركزًا لنشاط دعاة الإسماعيلية حتى تأثرت هذه الشخصية بتعاليم هذه الطائفة. حيث نجده قد كتب عن ما يشبه مذكرات عن حياته يقول فيها: «... منذ أيّام طفولتي، وأنا في السابعة من عمري، أحببت مختلف فروع المعرفة. وكنت أتوق لأن أكون من علماء الدّين، وظللت حتى سنّ السابعة عشر دارسا وباحثا في المعرفة. لم يكن لدى أيّ شكٍ أو نزعة في إيماني بالإسلام وفي اعتقادي بوجود إله حي، باقٍ، قدير، سميع، بصير.... وكنت أفترض أنّ الدّين والشريعة هما ما يؤمن به النّاس بوجه عام والشيعة بوجه خاص...» (لويس،٢٠٠٦،ص٦٧)(LOUIS,2006,P 67)

عرف حسن الصباح بتعطشه للمعرفة، فقد كان لديه طموح بأن يصبح أحد علماء الدّين، فظلّ يبحث في مختلف المعارف والأديان دون أن يترك دين أجداده ولم يدخله الشك يومًا في ما يعرفه عن عقيدته. يقول المؤرخون أنه التقى بمعلمٍ له حدثه عن الإسماعيلية وعن هذه الطائفة فقال له "حسن" أنهم كفرةٌ وما يقولونه ضدّ الدّين. لكن في الحقيقة منذ ذلك اليوم نما عنده فكر جعله يبحث ويقرأ كتبًا عن الإسماعيلية فوجد فيها أشياء أقنعته وأخرى عكس ذلك. وبعدها أصيب بمرض أدى به لأن يجد أنّ عقيدة الإسماعيلية هي التي تشفي غليله فكتب قائلاً: «أخذت أفكر، لا شك أنّ هذه هي العقيدة الصحيحة ولكني لم أعترف بها لخوفي الشديد، وها قد اِقترب الآن أجلي المحتوم وسوف أموت دون أن أصل إلى الحقيقة» (لويس،٢٠٠٦،ص٦٨)(LOUIS,2006,P68)

مَرِضَ"الصّباح" مرضا شديدا وهذا ما جعله يُقِرُّ بالعقيدة التي يريدها التي اقتنع بها لكنه تأخر بالبوح بها لخوفه، لكن عندما أحسّ بموته القريب أقرّ بها وندّم أنه لم يصل إلى الحقيقة التي كان يتمنى أن يصل إليها من وراء هذا المذهب الذي سار فيه.

بعد شفائه من مرضه قرر مواصلة بحثه وتعليمه بحيث أدى يمين القسم للإمام الفاطمي أمام مبشر إسماعيلي فتوسعت بذلك ثقافته الإسماعيلية، وتعرف على كل ما يخص هذه الطائفة، فواصل بذلك حياته مرورًا بعدّة بلدان ومناطق. سعى فيها لنشر هذه الدعوة في كل مكان يذهب إليه.مركّزا على أقصى الشمال الفارسي أي أراضي"الديلم"، فيها أناس مستقلون محبون للقتال يهابونهم كثيرا.ورأى هذا الأخير أن يستقر في "دمغان" وبدأ يبعث أتباعه في كل مكان لنشر دعوته.

كان"حسن" قبل كل هذا صديقًا "لعمر الخيام" والوزير نظام"الملك"، وبعد التعرف الذي دام بينهم أصبح ولمدة قصيرة من الزمن يشغل منصبًا في الدولة السلجوقية، وأصبح معاونًا للوزير، كما يبينه هذا المقطع: «سرعان ما وجد حسن الصّبّاح نفسه على هذا معاونًا لا غنى عنه للوزير الأعظم، فقد نجح في إقامة شبكة غنية النسج من العملاء من التجار المزيّفين والدراويش المزيفين والحجّاج المزيفين، يردون الإمبراطورية السلجوقية غير غافلين عن سماع ما يجري في أيّ قصر. وأيّ ركن من الإمبراطورية...» (معلوف،١٩٩٧،ص ٩٨)(MAALOUF,1997,P 98)

يوضّح لنا هذا المقطع المكانة التي سعى "حسن الصبّاح" إلى امتلاكها في الدولة السلجوقية.فقد كان جاسوسًا على كل ما كان يجري في كل أروقة المملكة. وجد مكانة له يسعى من خلالها لبسط نفوذه والتقرب من الملك ويحدّثه عن وزيره بسوء لمعرفته مدى حبّه له ومكانته التي هو فيها، فسعى لإدخال الشك في ظن الملك ضدّ وزيره. توضح الرواية هذا المعنى قائلة: «ويعرف حسن كيف يتعهد لدى السلطان كل أمارة من إمارات الوجد على وزيره، بم يتفوّق نظام الملك، بحكمته بمعرفته؟ إن حسن ليباهي بهذه وتلك ببراعة... لقد أثبت حسن في مدّة وجيزة مثل هذه الأهليّة، بإخلاصه؛ ما أسهل التظاهر بالولاء، .... فهو لا ينفك يحدثه عن نفقات الوزير. نظام الملك يحب السلطة والأبهة ولا يحب "حسن"سوى السّلطة... فليس أصدق منه من الأفواه الكاذبة" (معلوف،١٩٩٧،ص ٩٩-١٠٠) (MAALOUF,1997,P 99-100) . وهذا يعني مدى غيرة "حسن الصّبّاح" على الوزير "نظام الملك"والمكائد التي يدبرها لإزاحته من منصبه ليحل محله. لكن تيقَّن الوزير بعد هذا وقرر أن ينزّله من مكانته قبل أن يودي بالمملكة إلا مالا تحمد عقباه. فحكم السلطان عليه بالإعدام بعد مؤامرة من طرف الوزير، لكن تدَّخل "عمر الخيام" وأنقذ حياته، مما أدى إلى إثارة "حسن الصبّاح" ضدّ الوزير، بعد نفيه إلى أراضٍ بعيدة وتحريمه من دخول الأراضي التي تحت الحكم السلجوقي، و أجبره إلى أن يسافر إلى مصر عام ١٠٧١ لإكمال سيرته. استقر في احدى المعتقلات الفاطمية الشيعية التي كان يحكمها "الخليفة المستنصر".هناك أين وجد العديد من الإسماعيلية الذين لديهم رغبة واحدة فقط "الانتقام من السلاجقة" .

بحث حسن الصباح عن طريقة جديدة يستطيع بها تدمير السلطة السلجوقية، فبعد غيابٍ طويل عاد متنكرًا ساعيا إلى لقاء صديقه "عمر الخيّام". فلما التقى به أخذ يحدثه عن غيابه قائلاً: «لقد همت طويلاً، عندما غادرت أصفهان. لحق بي بعض رّجال نظام الملك طالبين قتلي، وتمكنت من تضليلهم ...حتى اِلتقيت اِسماعيليًا أوصاني بالذّهاب إلى مصر والالتحاق بمدرسة

الدّعاة التي كان هو نفسه قد التحق بها ... تلقيت هناك تعليمًا عن المذهب وعن مبادئه، تلقيت في مصر كل ما كنت أحتاجه من تعليم، ... ثم تعلمت المذهب وكيفية اعتناقه»(معلوف،١٩٩٧،ص ٢٢) (MAALOUF,1997,P 22) وهو يقول موضحًا أنّ الفرق شاسع بين عقيدته وعقيدة أبويه، فعقيدة أبويه طالما علمته التّحمل وانتظار عودة الإمام المحجوب المنتظر وبين عقيدته التي تقول إنه ينبغي العمل منذ الآن والتحضير لعودته، وهو الذي سيمهد الطريق لاستقباله. اعترف "الصّباح" "لعمر الخيّام" يوماً أنّ النّبي قد تحدث عنه وقال: «سوف يقوم رجل من بلاد "قم" ويدعو النّاس إلى الصّراط المستقيم فيجتمع حوله رجال كأنهم أسنة الرماح، لا تشتتهم ربح العواصف ولا يصيبهم الكلال من الحرب ولا يفشلون، وعلى الله يتوكلون». (معلوف،١٩٩٧،ص ١٢٣)(MAALOUF,1997,P 123) ، نفى آنذاك "عمر الخيّام" هذا القول بأنه لم يقرأ مثل هذا الحديث، رغم أنه قرأ كتب الحديث كلها.

قال عنه المؤرخ "جويني" أنه: «طوال خمسة وثلاثين عامًا التي عاشها في "ألموت" لم يجرؤ أحد على شرب الخمر علناً، ولم تكن شدته على أعدائه فقط، بل كانت على أقربائه أيضًا فقد أعدم أحد أبنائه لشربه خمرًا" (معلوف،١٩٩٧،ص٩٩)(MAALOUF,1997,P 99) .كان الصبّاح مفكرًا كما كان رجل عمل وحُفظ له المؤرخون أنه كان المحرّك الأول للدعوة الجديدة – الإسماعيلية– واستمرت بعد ذلك دعوته من بعده على يدّ مستخلفيه حتى اختفت على يدّ المغول و"الظاهر بيبرس". عاش "الصبّاح" حقبة سادت فيها الحروب مختلفة الطوائف من سلاجقة، صليبيين، فاطميين... إلاّ أنها اجتمعت على قوّته وحكمته في تدبير أمور دولته.

د– تركان خاتون رمز للسلطة والسيطرة:

تركان خاتون تعني ملكة الأتراك وهي إمبراطورة الإمبراطورية السّلجوقية وأوّل زوجة للسلطان "ملك شاه"، من أسرة ملكيّة وهي ابنة الملك"طغماج خان" أحد ملوك الدّولة "الأيلخانية"، في منطقة ما وراء النهر. وهي أم السّلطان "محمود بن ملك شاه". وصلت الدّولة السّلجوقية في عهد زوجها إلى أقصى حدودها وأعظم نفوذها، امتدت من حدود بلاد "الصّين"غربًا وشرقًا وجنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط، وضمّت بلاد إيران وما وراء النهر و"خراسان"، "آسيا الصغرى" و"العراق" و"بلاد الشام". دام حكمهُا عشرين عامًا منذ ٤٦٥– ٤٨٥ ه، الموافق لــ ١٠٩٢– ١٠٧٣م. "تركان" هذه، سيدة عظيمة، جريئة، كانت تسيطر على الملك بصورة أنه لا يستطيع رفض أيّ شيء هي تطلبه، فأقوالها، تجري في روحه فقد كانت هي الزوجة المفضلة للملك، ولا يرفض لها طلبًا ولا أمرًا، تقول الرّواية: «تُلقّبُ بحريم السلطان "بالصينية" ولدت في سمرقند من أسرة أصلها من قشغر...إنها أقدم نساء "ملك شاه" ولم يكن في عمره عندما عقد

عليها سوى تسعة أعوامٍ... وبكّرت في ترويض ذلك الملك، ... . الأثيرة المدللة، المشرقة، المسوعة الكلمة... وما من لحظة يضجر فيها بين ذراعيها لِيَعد نفسه بالبقاء معها كل عشيَّة... وهي تعلم أنه لا يستطيع أن يرفض لها أمرًا، وهي التي تملي عليه غزواته، وليس لها في الإمبراطورية كلها من منافس غير نظام الملك، وها هي ذي في طريقها هذا العام ١٠٩٢م إلى إخماده» (معلوف،١٩٩٧،ص ١٤٤)(MAALOUF,1997,P 144)

يبيّن لنا هذا المقطع صّحة ما قلناه في أوّل حديثنا عن هذه الشخصية. فقد عرفت كيف تسيطر على زمام المملكة السلجوقية عن طريق زوجها الملك الذي ينصاع لها وينفذ أوامرها. وأكدت لنا الفقرة على أنّ نظام الملك لم يكن يوافقها في اتخاذ أمور الدّولة حتى أصبحت عدوّته بحيث تقول المصادر التاريخية إنّ "تركان خاتون" تحالفت مع أعداء نظام الملك ضدِّه. ليموت بعد أشهر قليلة من ذلك.

أدت المرأة دورا كبيرا في العهد السُّلجوقي، فكان للبعض دور في الميدان السيّاسي والعسكري والاجتماعي أمثال زوجة الملك"طغرل بك"، فقد كانت صاحبة رأي وتدبير وعزم. "تركان" زوجة السلطان "ملكشاه" عندما توفي استولت على السلطة.يقول أمين معلوف في هذا الشأن: «تجرأت امرأة في الإمبراطورية السلجوقية في الوقت الذي كانت فيه أقوى إمبراطورية في الدنيا على الإمساك بزمام السلطة بينها كانت وهي جالسة خلف حجابها تنقل جيوشاً من أحد أطراف آسيا إلى طرف آخر، وتسمِي الملوك والوزراء والولاة والقضاة، وتملي الرسائل إلى الخليفة ، وترسل المبعوثين إلى صاحب "ألموت"وكانت تجيب الأمراء المتذمرين من سمَاعِهَا تصدر الأوامر وتقول : الرّجال عندنا هم الذين يقودون الحروب،ولكن النساء هنّ اللاّتي يقلنا لهم من يقاتلون»((معلوف،١٩٩٧،ص ١٤٤)(MAALOUF,1997,P 144)

استطاعت هذه المرأة تسيير امبراطورية عظيمة فكانت تتحالف مع كل من لديها مصلحةٌ أمثال"حسن الصّباح" حتى وإن كانت عقيدتهم مختلفة من أجل التخلّص من"نظام الملك" ؛ لأنّ هدفهم مشترك، وبعد وفاته أصبحت تحكم كل زمام الأمور وقد تخلَّصت من كل رجل في الدولة يكِّن بصّلة أو احترام لنظام الملك، ومع وفاة السّلطان أصبحت قوّة الدّولة على يدّيها. لكن رجال النظامية وقفوا ضدّها وأعلنوا مساندتهم لأكبر أبناء"ملك شاه" بينما هي تريد أصغرهم. وكان على السلطانة أن تستخدم الحيلة، وكتبت إلى عدد من ولاة الإيالات رسائل تقول: «إني أرملة، وعليّ حماية طفل قاصر بحاجةٍ إلى والد يسدّد خطاه، ويحكم المملكة باسمه، فتعال بأسرع ما يمكن على رأس عسكرك فتخلصُ أصفهان وتدخلها فاتحًا منتصرًا وأتزوجك فتقبض على زمام الأمور» (معلوف،١٩٩٧،ص١٥٧-١٥٨)(MAALOUF,1997,P 157- 158) .

كانت هذه إحدى حيّل "تركان" لحماية نفسها والحفاظ على اِستمرارية الدّولة السلجوقية. فقد أعادت التّواصل مع "حسن الصبّاح" وتحالفت معه وأصبحت الدّعوة الإسماعيلية تتسع. وتضاعفت عمليات اعتناق المذهب.

احتلت هذه المرأة مرتبة عالية في الدّولة العليّة بحيث أنّ معظم المعاهد والمعاملات التجارية كانت تختم بختمها إلى جانب ختم الملك.كانت تسعى إلى كسب مصالح سياسيةً كانت أو اجتماعيه ، وبرزت في المجال العسكري ،كما سعت إلى النيل من أعدائها على الرغم من الهزائم التي لحقتها منهم إلاّ أنها تجرأت على خوض معارك مع أعدائها والدخول معهم في جدال.

عرفت تركان خاتون بالاحترام والعقلانية، كما كانت صاحبة كلمة، تتصف بطابع الخشونة والقسوة وانعكس ذلك على شخصيتها. كان لها مهامات إدارية كالمشاركة في تعيين وعزل الوزراء ولو بصورة غير مباشرة وكان لها اسهام في شتى مجالات الحياة آنذاك،اجتماعيًا، سيّاسيًا، عسكريًا. كانت مستولية على الأمور في أيام السلطان "ملك شاه وكان لها هيبة وأمرٌ مطاع. ويعود هذا النفوذ الكبير لها والمكانة العالية من نشأتها وتربيتها وأصولها الملكية، فهي من سلالة ملوك القراخانين حكام ما وراء النهر وعاصمتهم سمرقند.

كانت أسرة تركان خاتون حاكمة ذات نفوذ قوّية، فاِنعكست عليها لتُكمل مسيرتها هذه حتى وصلت إلى بسط نفوذها في أعظم الدول في التاريخ. وجدت ميتة على سريرها وإلى جانبها سلاح الجريمة سنة "١٨٤هـــ"ب"أصفهان" من شهر رمضان.

هكذا ترسم شخصيات رواية سمرقند التاريخية في القرن الحادي عشر حالة تنافر يجسد طرفها الأول حلم "عمر الخيام' بمرصد وحديقة وورد مع امرأةٍ وكأس. أما طرفها الآخر فيمثّله سعيٌ من أطراف متعددة إلى الملك والجاه والسلطة وما يمتدُّ من ذلك إلى عنف وكراهية وتقتيل.هذا التنافر الذي ابتدأ زمن الخيام وما انتثر منه عهد الإمبراطورية السلجوقية من أحداث تمثّل بتدابير سلطوية قامعة دفعت إلى إقامة يوتوبيا الرفض التي أسسها آنذاك حسن الصباح في مدينة "آلموْت" المحصنة التي ينطلق منها الرعب والقتل والدمار على أيدي الحشاشين ورئيسهم.وكأن الروائي ينتج حوارا بين الأزمان وبين الحضارات ليكشف للقارئ أن الزمن يتكرر بتكرار الشخصيات بسلبياتها وإيجابياتها.وكأن الرواية تثبت أن التاريخ الإنساني هو تاريخ واحد مستمر عبرالأزمنة ؛وأن مأساة الواقع المرير المليء بالظلم والاستبداد هو واقع قادم من بعيد ومتوقد فينا؛ ذلك أنّ الفساد والاستبداد ليسا حكرا على زمن من الأزمنة بل هي ظواهر راسخة في المجتمعات على مرّ العصور.

خاتمة:

–استثمرت رواية (سمرقند) التاريخ لتوظفه عنصراً فاعلاً في إنتاج فن الرواية بتمكّن وحذق، وفي رسم بيئة الشرق من دون الاستعلاء عليه والوقوع في فخ ممالأة الغرب أو مغازلته، كذلك من دون تقديم مواقف إدانة ساذجة أو جاهزة لهذا الغرب وفق أفكار مؤدلجة مسبقة. وليس خافياً أن ذلك أمرا ليس بالسهل إلى جانب تحقق قدرات إمتاع وشدّ واستدراج للقارئ على مدى صفحات الرواية الـــ ٣٣٦، بوسائل بناء متمكنة لأجزاء الرواية ورسم منطقي ومعقول للشخصيات والبيئات المتنوعة ومن ثم القدرة على إنتاج معرفة.وتأسيسا على ذلك توصلت دراستنا **إلى النتائج الآتية:**

– قدّم الرّوائي نصًا متداخلاً بين الأحداث التاريخية وبين أحداث الراوي الرئيسة ألاّ وهي البحث عن المخطوط الضائع.وحوّلت الرّواية الأحداث التاريخية الواقعية، إلى عالم من الخيال الإبداعي وهذا ما يسمى بالتناص التاريخي الواقعي.

–تعبر شخصيات الرواية التاريخية عن مستويات اجتماعية وفكرية متباينة، تحـــاول كـــل واحدة منها الإفصاح عنها من خلال محاوراتـــها،التي كان فيها الراوي المسيطر الأوحد أيضا؛ لأنه لا ينطق شخصياته الروائية،إلا بما يبرر مستويات تفكيرها الذي يسعى إلـــى تعريتها أمامنا في محاولة للتأثير على إدراك القارئ.

– اتّخذت شخصيات الحقبة الأولى من الرّواية(شخصيات القرن الحادي عشر) الأدب والشِّعر وسيلة للتعبير والعيش أمثال "عمر الخيّام"، لكنها قوبلت بالرّفض من الجماعات المتّعصبة واِتهمت بالزّندقة لاعتبار أدبها تتخلله أفكار فلسفية ميتافيزيقية غير معترف بها آنذاك، وكانت الأخرى تعتمد على استعمال العنف لتحقيق أهدافها مثل"حسن الصبّاح"، وأخرى نجدها تميل إلى السياسة والمواقف السياسية "كنظام الملك"و"تركان خاتون".

–لا يمكن اِنكار البُعد السّياسي للرّواية، ففي الواقع بعد الأحداث المأساوية التي مرّت في "سمرقند"و"أصفهان" انتهز "الخيّام" الفرصة لإطلاق نداء من أجل التسامح والتعايش بين الشعوب كما يحذر من التعصّب؛ هذه الرؤية للخيام تشبه رؤية المؤلف للصّراعات المختلفة التي غطَّاها في جميع أنحاء العالم .

– جاءت رواية سمرقند معبأة بالتداخلات بين الأحداث والتفاصيل التاريخية التي يخضعها للسياق الرؤيوي ولأبعاد التجربة ، فنستشعر ذلك النفس الملحمي الذي يتميز به موضوعه ، وذلك السيلان والتدفق الذي يكسبه الحيوية والتحرك دون انقطاع ؛فتتقاطع أحداثها التاريخية تارة،وتتوازى تارة أخرى لتتحّول أحداثها المسرودة من منظور تأويلي إلى فنتازيا تاريخية تسقط

على واقع الأمة العربية ، ما يجعل من التاريخ كمادة روائية يتجاوز في لحظة انتفاض من تاريخه كل الخطابات، التي أنيطت به؛ أي أنه لا يهدف مجرد تذكيرنا بأحداث مضت ولا إلى جعلنا نلتقط بعض المشاهد من مسرح الأحداث زمنيا ومكانيا بل يهدف إلى غاية يتحاور فيها الجمالي والسياسي، والخيالي،والواقعي الواعي واللاواعي ، الرغبة في قراءة الواقع بعيون تضع القارئ في تلك اللحظة التاريخية المشحونة.والرغبة في قراءة مغامرة لهذا الواقع عينه .وهنا يلوح سرد الحدث كأنما هو خاص بزمن لا تاريخي ، إنها كتابة تتزين بالتاريخ لكي تعيد قراءته أو تلبس قناعه كي لا تكونه.

إنها التأويلية مرة أخرى التي تجعل الخطاب شكلا لا زمنيا من حيث هو زمني، وتنسج له وجها لا تاريخيا من حيث تاريخيته لخطاب يقرأ التاريخ وحقائقه ليعيد صياغتهما في بناء نصي روائي.وهنا يتجلى الحس التاريخي للكتابة كأنه مخطوط بقلم مؤلف سرمدي يقف على عتبات الحقب التاريخية وقفة تأمل وتساؤل وتأويل.

مراجع البحث:

- الخيام،عمر. (١٩٣١).رباعيات عمر الخيام. تعريب أحمد الصافي النجفي.ط١.دمشق: دار المعارف.
- رامي،أحمد.(٢٠٠٠). رباعيات الخيّام.ط١. بيروت: دار الشروق.
- رضا محبوبة، عبد الهادي محمد.(دت) ، نظام الملك الحسن بن علي الطوسي(٤٠٨/ ٤٨٥هـ).القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- 4–الشمالي، نضال.(٦ ٢٠٠). الرواية و التاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية).ط١. عمان الأردن: عالم الكتاب الحديث.
- لوكاش، جورج.(١٩٧٨). الرواية التاريخية .تر: صالح جواد كاظم.بيروت : دار الطليعة.
- لويس، بيرنارد.(٦ ٢٠٠). الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام. تعريب: محمد العزب موسى.ط٢.القاهرة مكتبة مدبولي.
- –معلوف، أمين.(١٩٩٧). رواية سمرقند.ط١.بيروت: دار الفارابي.

References

*-

*-Al-Shamali, N. (2006). *Narration and History :Searching the Levels of Discourse in the Arabic Historical Novel*. 1st Edition. Amman . Modern Book World

* -Khayyam, Omar. (1931). *Rubaiyat of Omar Khayyam*. Arabization. Ahmed Al-Safi

Najafi Damascus: Knowledge House.

Lewis, B. (2006). *Assassins, a Revolutionary Band in the History of Islam*. Localization: Mohamed Azab Moussa. 2nd Edition. Cairo. Madbouly Library

*-Lukash, G. (1978). *Historical Novel*. TR: Saleh Jawad Kazim; Beirut: House of Vanguard

*-Maalouf, A. (1997). *Samarkand*. Beirut: Al-Farabi Publishing House .

*-Rami, A. (2000). *Rubaiyat of Khayyam*. Beirut: House of shorouk

*-Reda. M., Abdul Hadi, M. (DT), NIDHAM Hassan bin Ali Tusi (408/485 AH Cairo: Egyptian Lebanese House